# آليات اصطناع المصطلح عند عبد الملك مرتاض

**أ. نور الدين دريم**

**جامعة الشلف**

**مقدمة :**

لا يخرج المصطلح في مفهومه عن اتّفاق جماعة من النّاس على تخصيص لفظ ما، لحقل معرفيّ ما؛ ليكون غاية الدلالة التي يرومونها، والأصول المعرفيّة التيّ يودّون تدارسها، وقد قيل إنّ المصطلحات مفاتيح العلوم، ولك أن تتخيّل عِلما بلا مصطلحات، إلاّ أنّ هناك إشكالية تعاني منها جلّ العلوم، وخاصة العلوم الإنسانية، وهي تعدّد المصطلحات في الحقل الدراسي الواحد التي أفرزها التقدّم العلمي الذي نعيشه يوميّا، "والعناية بالمصطلح هي الطريق إلى جعل اللغة لغة البحث العلمي، تقوم بأدوارها كاملة في مجالات المعرفة والإبداع"[1].

ومن تلك المجالات النقد والسيمائية، الذين ذاع صيت كاتب جزائري فيهما، هو عبد الملك مرتاض، حيث رأى "كل حقل من الحقول المعرفيّة يصطنع مصطلحاته الخالصة له، الموقوفة عليه،"[2] وحين لاحظ فوضى مصطلحية في هذين الحقلين، آثر أن يصطنع لنفسه مصطلحات تفرّد بها عن غيره في كتاباته.

(1)- رجاء وحيد دويدري، المصطلح العلمي في اللغة العربيّة، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 2010، ص09.

(2)- عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومة، الجزائر، الطبعة الثانية، 2010، ص21.

وانطلاقا من هذه الخاصيّة التي تميّز بها هذا الكاتب، آثرت أن أنجز هذه المداخلة الموسومة بـ "**آليات اصطناع المصطلح عند عبد الملك مرتاض**"، أدرس فيها ثلاثة مصطلحات تداولها الكاتب في كتاباته، هي : **السيمائية، السّمة، الحيّز**.

**1- مصطلح السيميائية (Sémiotique) / (Sémiologie)**

إنّ أول ما يستوقف الناظر في الدراسات السيميائية الأوربية، هو الاختلاف المصطلحي بين المنظّرين الغربيين في ما تعلق بالتسمية التي أطلقوها على السيميائية، بوصفها علما موضوعه العلامة فتجدهم يتداولون مصطلحين، الأول (Sémiotique) والثاني (Sémiologie) للدلالة على مفهوم واحد تارة، وللدلالة على مفهومين مختلفين – ولكن هذا الاختلاف يسير –، يقول تودوروف "إن السيميائية ( la sémiotique) أو السيميولوجيا la sémiologie هي علم العلامات"[1]، ممّا يوحي أن المصطلحين، وضعا للدلالة نفسها في الثقافة الغربية، فأدّى إلى توليد أزمة للمصطلح النقدي عندهم في بدايات التنظير لهذا العلم، وعليه أمكننا القول إنّ مخلّفات هذه الأزمة انتقلت إلى النقد العربي، الذي استلّ بعض المفاهيم الغربية.

إنّ أصل وضع هذين المصطلحين المختلفين، يرجع إلى أصل السيميائية ؛ فقد ارتبط مصطلح (Sémiotique) والإنجليزية (Semiotics)، بمؤسس النظرية السيميائية، الأمريكي "تشارل بيرس"، في حين ارتبط المصطلح الثاني باللغوي السويسري "فرديناند دي سوسير" الذي استوحاه من المهاد الإغريقي، وتحديدا من مصطلح (semions) الذي ينصرف مفهومه كما تذكر جوليا كريستيفا إلى أية علامة مميزة خصوصية أو أثر وغيرها من العلامات سواء أكانت مكتوبة أو منقوشة[2].

(1)- T.todorov, et O.ducrot, dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, ed Seuil, France (1972). p113

(2)- Julia kristiva , la révolution du langage poétique, ed seuil , paris (1974) P22.

واستعمله بمعنى العلم الذي يدرس العلامات في صدر الحياة الاجتماعية[1]، إلاّ أنّ دلالته الاصطلاحية في بداية الأمر كانت مختلفة عن ما حدّده دي سوسير ؛ لأنّ مصطلح sémiologie استعمل أول مرة سنة 1752 م، في مجال الطب للدلالة على دراسة أعراض الأمراض، والعلامات الطارئة على المرضى لفظيا، ونفسيا، وجسديا[2].

شكّل النزاع القائم بين المصطلحين، مصدر قلق لكل باحث في الدراسات السيميائية مما أفضى إلى عقد اتفاق بين المنظّرين في هذا العلم غايته اختيار أحد المصطلحين السابقين، يقول غريماس "عندما تعلق الأمر منذ ست سنوات (يقصد سنة 1968) بإنشاء جمعية دولية، كان ينبغي أن نختار بين المصطلحين، تحت تأثير رومان جاكوبسون، وبالاتفاق مع ليفي ستراوس بنفنيست، وأنا شخصيا، وقع الاختيار على السيميائية (sémiotique)، غير أن لمصطلح السيميولوجية جذورا عميقة في فرنسا، ومن هنا جاء الاحتفاظ بالتسميتين"[3]،

فالفرق بين المصطلحين من منظور "غريماس" هو جغرافي بالدرجة الأولى، ولا يتعدّى ذلك، ولكن يرى بعض الباحثين أنّ هناك فرقا دقيقا بينهما، فالذين استعملوا اللغة الطبيعية كمستوى تعبيري آثروا استعمال السيميولوجية في كل موضع لساني، فيما آثر بعضهم استخدام السيميائية في كل موضع غير لساني[4]، ويتجلّى الفرق

---

(1)- فرديناند دي سوسير، دروس في اللسانيات العامة، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، دون طبعة، الجزائر، 1986، ص27.

(2)- نورالدين السد، المكونات الشعرية في يائية مالك بن الريب، دار المعارف، المغرب، 1998 ص75.

(3)- عبد الملك مرتاض، نظرية التقويض (مقدمة في المفهمة والتأسيس)، دار هومة، الجزائر، الطبعة الثانية، 1997، ص67.

(4)- مجموعة من المؤلفين، السيميائية أصولها وقواعدها، ترجمة رشيد بن مالك، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الثالثة، 2002، ص70.

بينهما بوضوح بالعودة إلى تعريفهما في قاموس لاروس الفرنسي، فيعرّف السيميولوجية على أنّها علم العلامات، والسيميائية نعني بها نظرية العلامات في المنطق الرياضي[1].

ويظهر من خلال تعريف لاروس للمصطلحين، أن مفهوم " sémiotique" يحيل إلى مفاهيم منطقية رياضية مجردة ذات سمة غير لغوية. وأمّا مصطلح "sémiologie" فيحيل إلى مفاهيم ذات سمة لغوية، ولكنّه كتب للمصطلح الأول الهيمنة على كل الدراسات ذات الطابع السيميائي، وقد شمل حتّى اللغوية منها.

يقول "ميشال أريفي" لأسباب مختلفة يبدو اليوم مصطلح السيميائية باسطا هيمنته، تهتم الجمعية الدولية ... التي تكلّم عنها غريماس بالسيمائية، وتقصي من مجال اهتمامها السيمولوجية، إنّ المجلة التي تقوم بنشرها تحمل عنوان (Semiotica) وقد طبعت كتبا مختلفة منذ 1970 يتصدرها مصطلح (Sémiotique)"[2].

**1-1 – مصطلح السيميائية في الثقافة العربيّة :**

لقد عرف مصطلح السميائية اضطرابا في بيئته الأصلية (الغربيّة)، ولا ريب أنّ هذا الاضطراب صاحبَ المصطلح حين انتقل إلى الثقافة العربية، فوجود أكثر من عشرين مقابلا له في العربيّة يؤكد هذه الحقيقة.

إنّ أول ظهور لمصطلح "السيميائية" في ساحة النقد العربي كان على يد الكاتب "صلاح فضل"، في كتابه "نظرية البنائية في النقد الأدبي"، وقد آثر خلاله استعمال مصطلح "سيميولوجية"[3] في مقابل الأصل الأوربي، وفي مستهل الثمانينات أخذ البحث السيميائي ينمو شيئا فشيئا في الثقافة العربية، مع كثرة الترجمات لمؤلفات هذا الفن إلى العربيّة، وتوالت التآليف العربيّة في بادئ الأمر إلى أن صارت

(1)- petit larousse en couleur, France 1980.p843.

(2)- مجموعة من المؤلفين، السيميائية أصولها وقواعدها، ترجمة رشيد بن مالك، ص68.

(3)- صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1983، ص445.

السيميائية موضة العصر في الكتابات النقدية العربية، وخلّفت زخما سيميائيا أفرز سيلا من المصطلحات التي وضعت في مقابل المصطلح الغربي الوافد، كان نتاجه فوضى مصطلحية، أضف إلى ذلك ضبابية كثير من المقابلات العربية واختلاطها بمفاهيم جديدة، "كلّ هذا وجد فيه المناوئون لمناهج الحداثة، حجة دامغة لوصم هذه التيارات المعرفية بالإفلاس، واتّهام النقد العربي المعاصر بالغموض المتصنع، بحيث صار فهمه عصيا على الناقد المتخصص، فكيف بالقارئ العادي"[1].

وقد قام الدكتور عبد الله بوخلخال[2]، بإحصاء المصطلحات العربية التي وضعت ترجمة للمصطلح وقد اقتصر فيها على ما ألّف في مجال اللغة ؛ لأنّ المصطلح ظهر في الساحة اللغوية أولا قبل أن يلج باب الأدب، ومن تلك المقابلات نذكر على سبيل المثال لا الحصر : الأعراضية، علم الدلائل، علم العلامات، علم العلاقات، السيمالوجيا، علم الدلالة، علم المعنى، السيميولوجيا، علم الإشارات ،سيميائيات، سيميولوجيا، سيميوطيقا، سيمياء، علم الرموز، علم العلامات، السيميوتية العلامية علم العلاقات ... إلخ .

وتباينت ترجمات النقاد العرب لهذا المصطلح في ميدان النقد الأدبي، ففضّل الدكتور "صلاح فضل" استعمال مصطلح "سيميولوجية"؛ لئلا يختلط مفهوم "السيمائية" بمفهوم "علم السيمياء" عند العرب القدامى – على حدّ قوله[3] –، وتبعه في هذه الترجمة الدكتور "عبد الله الغذامي"[4] لأنّه يرى في هذا المصطلح سهولة نطق

(1)- عبد الحكيم راضي، بنية الخطاب الشعري، دار الغرب، الجزائر، 2000، ص440.

(2)- ينظر : نورالدين السد، المكونات الشعرية في يائية مالك بن الريب، ص74.

(3)- صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، ص445.

(4)- الغذامي محمد عبدالله، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، النادي الثقافي الأدبي، جدة، 1985، ص42.

أثناء النسبة إليه بخلاف النسبة إلى المصطح المركّب "علم العلامات"، وشاع مصطلح "السيمياء" عند الدكتور "معجب الزهراني "[1].

أما الغالبية من النقّاد العرب والجزائريين، فآثروا استعمال "سيميائية"، فقد عمدوا إلى ترجمة اللاحقة الفرنسية "ique" بياء النسبة، وترجموا الجذر"sémio" بـ "السيمياء" ؛ لتصبح ترجمة المصطلح "سيميائية، ومعناها علم معين أو منهج ما، ولكنّ هذا النمط من الترجمة، يضع صاحبه في إشكال؛ لأنّ كثيرا من اللواحق الفرنسية(isme – ité – ien) ترجم بياء النسبة، ممّا يستعصي معه التفريق بين بعض المصطلحات العربية التي وضعت في الأصل ترجمة لمصطلحين أجنبيين مختلفين في الدلالة، والأمر نفسه بالنسبة لمصطلح "سيميائيات" الذي شاع في محيط الدراسات الأدبية ويظهر أنّ النقاد الذين جنحوا لاستعمال هذا المصطلح قد ساروا على نهج المتقدّمين من علماء العربيّة ؛ لأنّ هؤلاء قد وضعوا مقابلات لمصطلحات بعض العلوم التي نقلوها عن غيرهم على هذه الصيغة، (الاسم + اللاحقة ات) نحو : الرياضيات، والطبيعيات وغيرها، ويبدو أنّ هذه الترجمة أنسب الترجمات ؛ لأنّها تخضع لمعيار علمي رصين.

(1)- ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، الطبعة الثالثة، 2002، ص176.

## 1-2- مصطلح السيميائية عند عبد الملك مرتاض :

ألف النقّاد العرب النسبة إلى السيميائيات، سيميائي، مع العلم أنّ الصواب هو"سيميائياتي" فربّما اعتادوا تطبيق نظريتهم القائلة: خطأ شائع خير من صواب مهجور، ولم ينتبه لهذا الخطأ الواقع في النسبة إلاّ الدكتور عبد الملك مرتاض[1].

**لماذا السيمائية عند عبد الملك مرتاض وليس السيميائية :**

دأب عبد الملك مرتاض في دراساته الأولى على استعمال مصطلح السيميائية[2]، أمّا في دراساته المتأخرة، فقد اصطنع لنفسه مصطلحا جديدا سمّاه "**السيمائية**"، وتفرّد به عن غيره من النقّاد العرب والجزائريين.

قبل أن يذكر عبد الملك مرتاض أسباب اختياره لهذا المصطلح، أشار إلى أنّ مصطلح "السيميائية" الذي استعمله العرب في المشرق والمغرب، صيغة نادرة في العربيّة، ولا مثيل لها إلاّ صيغتان: الأولى: الكبرياء (بمعنى العظمة والتجبّر)، والجربياء (الريح التي بين الصبا والجنوب) ولم يغفل الدكتور الحديث عن اللحن الواقع في مصطلح السيميائية، فجميع الناس –كما عبّر – ينطقون ميمها ساكنة فيلحنو[3]، فطول اللفظ، وامتداد حرف السين والياء الأولى، وتشديد الحرف الأخير منه، كلها عوامل تؤدي أثناء النطق به في الوقوع في المحظور (التقاء الساكنين في اللفظ الواحد).

## كيف اقتنع عبد الملك مرتاض بمصطلح السيمائية :

(1)- عبد الملك مرتاض، قراءة النص بين محدودية الاستعمال ولا نهائية التأويل، مؤسسة اليمامة المملكة العربيّة السعودية، 1997، ص336.

(2)- ينظر : مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص16. وعبد الملك مرتاض، قراءة النص بين محدودية الاستعمال ولا نهائية التأويل، ص339.

(3)- ينظر : عبد الملك مرتاض، قراءة النص بين محدودية الاستعمال ولا نهائية التأويل، ص333.

بعد اللحن الذي وقف عليه عند استعمال مصطلح "السيميائية"، عمد الدكتور إلى العودة للمعاجم العربيّة عساه يجد ما يصبو إليه، وقد كان له ذلك، جاء في معجمات اللغة[1] خمسة مرادفات، وكلّها تأتي بمعنى العلامة، وهي: السيمة والسومة والسيما والسيماء والسيمِياء، فلّما وجد العرب قد استعملت هذه الألفاظ، وجميعها يحيل إلى موضوع السيميائية، فتساءل متعجبا فقال : كيف تجافى النقاد العرب المعاصرون عن كل هذه المترادفات المشروعة لغويا، والمعترف بها معجميا[2] ؟

**أسباب اختياره لمصطلح السيمائية :**

- اللحن الذي رآه أثناء نطق مصطلح السيميائية كما مرّ بنا.
- طول مصطلح السيميائية نطقا ولفظا (كتابة).
- وجود مقابلات للمصطلح الأجنبي في المعجمات العربيّة.

بعد أن اجتمعت لعبد الملك مرتاض هذه الأسباب قال "ولما رأينا الناس مضوا على اصطناع هذا المصطلح الأطول من بين أعضائه ؛ احتلنا على ذلك بالإبقاء عليه مع أخذه من السيماء (المهموز) حتّى يتقارب مصطلحنا من مصطلح الآخرين طمعا في التخلص من ذلك اللحن الشنيع الذي يقع فيه الناس من حيث لا يشعرون، فقلنا: السيمائية [3]، ولما اختار عبد الملك مرتاض مصطلحه، ذهب يعلّل لذلك قائلا "ذلك أنّنا من الوجهة اللغوية الخالصة (يقصد المعاني اللغوية لمصطلح السيمائية في معجمات اللغة) ... يمكن أن نقول على وجه الإباحة، كما يقول الفقهاء : السيميّة

(1)- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، مادة : سوم، القاموس المحيط، الفيروزابآدي دار القدس، لبنان، الطبعة الأولى، 2009، مادة سوم، باب الميم فصل السين، ص1167.

(2)- عبد الملك مرتاض، قراءة النص بين محدودية الاستعمال ولا نهائية التأويل، ص334. وينظر : عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، ص157.

(3)- عبد الملك مرتاض، قراءة النص بين محدودية الاستعمال ولا نهائية التأويل، ص334.

من السيمة، والسومية من السومة، والسيمويّة من السيما ...فتلك إذن علة إيثارنا لمصطلح السيمائية "[1].

ويظهر ممّا سبق أنّ عبد الملك مرتاض، قد اتّخذ من التراث المعجمي ومواده اللغوية آلية لاصطناع المصطلح، فقد وظّف المعاني اللغوية لمادة "سوم"، لصياغة مصطلح "السيمائية".

فبعد أنّ حدّد الدكتور "مرتاض" السيمائية مقابلا للمصطلح الأجنبي "Sémiologie" نبّه إلى ظاهرة تتصل بهذا المصطلح، وهي النسبة إليه، وكذا الأخطاء الواقعة من قبل النقاد والباحثين، ممّا اضطره للحديث عن النسبة إلى هذا المصطلح، يقول "كثيرا ما يخطىء في استعماله النّاس على عهدنا هذا، حين يقولون مثلا التحليل السيمائي؛ لأنّ النسبة تقوم على ما يسمّيه النحاة الياء الصناعية ...

وتأسيسا على ذلك فإنّ الوجه أن نقول : التحليل السيماءوي"[2]، إنّ ما ذهب إليه عبد الملك مرتاض في رفضه نسبة السيمائي، وترجيح نسبة السيماءوي، من قبيل التفريق بين الاسم "السيمائية "، والصفة السيماءوية.

**2– مصطلح السمة signe, sign:**

آثر عبد الملك مرتاض اصطناع مصطلح جديد مقابل مصطلح "Signe" الفرنسي، بدلا من مصطلح "دليل"، يقول "وإنّا قد وجدنا بعض الأصدقاء من المترجمين والباحثين المغاربة يطلق على مصطلح السمة مصطلحا آخر غريبا، في رأينا على الأقل، وهو الدليل، وإنّا لا ندري من أين يأتي هؤلاء الأصدقاء بالدليل العلمي

(1)- عبد الملك مرتاض، قراءة النص بين محدودية الاستعمال ولا نهائية التأويل، ص335. وينظر : عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، ص165.

(2)- عبد الملك مرتاض، قراءة النص بين محدودية الاستعمال ولا نهائية التأويل، ص336.

الغريب على اصطناعهم مثل هذا الدليل مطلقينه على السمة، أو العلامة، أو الأمارة، أو النار، فكل، لغويا جائز غير منكر"[1].

فبعد أن اختار عبد الملك مرتاض لنفسه هذا المصطلح راح يعلّل سبب اختياره، وانطلق في تعليلاته من نشأة المصطلح الأجنبي عند الغربيين، يقول" إنّ مصطلح signe آت من الأصل اللاتيني sig-num الآتي من اللفظ العتيق seing، الذي يعني السمة أو سمة الشرعية "[2].

ثمّ عرّج على المعنى اللغوي للفظ "السمة"، فالسمة آتية من الوسم، بمعنى العَلْم، "فالسمة إحداث علامة مادية في جسم، أو في شيء، والدليل قد يكون حركة، أو كلاما أو حضورا أو غيابا أو نطقا أو سكوتا، فهو شيء يمثُل في إثبات حجة للبرهنة بها على حكم، أو قضية"[3]، أي إنّ معنى الدليل غير محايد، ويبثّ على سبيل المقصدية، في حين معنى السمة محايد، وتبثّ على غير مقصدية.

ثمّ عمد عبد الملك مرتاض إلى الكشف عن المعنى الذي تفيده السمة في اللاتينية، وهو السمة أو سمة الشرعية، مقارنا إياه مع ما استعمله العرب "حين كانوا يسمون إبلهم بسمة يعرفونها بها، ومن ذلك المعنى جاء قوله تعالى "**سِيمَاهُم فِي وُجُوهِهِم مِن أَثَرِ السُّجُودِ** "[4]، فما الداعي العلمي، الذي يدعو إذن إلى ترجمة لفظ (signe)، ذي الأصل اللاتيني الدال في أصله على السمة، أو سمة الشرعية التي تحدد

---

(1)- عبد الملك مرتاض، قراءة النص بين محدودية الاستعمال ولا نهائية التأويل، ص325. وينظر : عبد الملك مرتاض،" في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد"، عالم المعرفة، دون طبعة، الكويت 1998، ص313.

(2)- عبد الملك مرتاض، قراءة النص بين محدودية الاستعمال ولا نهائية التأويل، ص326. وينظر : عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، ص146.

(3)- عبد الملك مرتاض، قراءة النص بين محدودية الاستعمال ولا نهائية التأويل، ص326. 28- سورة الفتح، الآية 29.

(4)- عبد الملك مرتاض، قراءة النص بين محدودية الاستعمال ولا نهائية التأويل، ص327.

ملكية الشيء، إلى العربيّة تحت لفظ الدليل، وهل هذا ممّا تقبله العقول، وتسوّغه اللغة العربيّة التي تعرف ستة مرادفات لهذا المعنى على الأقل : النار والأمارة والعلامة والجُدّة،والسمة (من وسم)، والسيمة (من سوم) وللسيمة هي أيضا أربعة مترادفات : السومة، والسيما، والسيماء، والسيمياء "[1].

بعد أن قدّم عبد الملك مرتاض تصوره حول معنى السمة عند كل من العرب والغرب، رفض استعمال مصطلح العلامة، مبررا ذلك بجملة من الأسباب[2]:

– إن مصطلح العلامة مصطلح استخدمه النحاة، والانتقال به إلى حقل السيمائية قد يجعله غير قادر على الاشتحان بالمعنى السيماءوي الجديد.

– تداخل المعاني، الحاصل من جراء الترجمة، مثلا : لفظ marque، يترجم بلفظ علامة وهو في معناه غير : signe المتمحض للاصطلاح السيماءوي.

– استعمل أشهر اللغويين العرب مصطلح السمة، تفسيرا للعلامة ومنهم عبد القاهر الجرجاني، يقول "لا يرجع إلى معاني اللغات، ولكن إلى كون ألفاظ اللغات سمات لذلك المعنى"[3].

– ورود العلامة في القرآن الكريم بمعنى المعالم المادية، وقد فسّر الزمخشري لفظ علامات في قوله تعالى "**وَأَنهَارًا وَسُبُلاً لَعَلَّكُم تَهتَدُونَ وَعَلاَمَاتٍ وَبِالنَّجمِ هُم**

(1)- عبد الملك مرتاض، قراءة النص بين محدودية الاستعمال ولا نهائية التأويل، ص328. وينظر : عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، ص148.

(2)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، علّق عليه محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، 2001، ص345.

(3)- سورة النحل، الآيتان 16/15.

**يَهتَدُونَ**"[1]، على أنّها معالم الطرق وكل ما تستدل به السابلة من جبل ومنهل وغير ذلك "[2].

ثمّ اقترح أن تكون السمة للعلم الذي يعالج دلالة الألفاظ، ودلالة الإشارات، ودلالة الأصوات، ودلالة الحركات، ودلالة الألوان، ودلالة المظاهر الطبيعية[3]؛ أي اصطلاح لكل ما هو لغوي وغير لغوي، وهذا من وجهة نظر سيماءوية، وأن تكون العلامة للغة النحوية نحو : التاء في ابنة علامة تأنيث هذا الاسم (ابن) حين يكون مذكرا خاليا منها[4]؛ أي اصطلاح لكل ما هو لغوي محض.

ويتّضح ممّا تقدّم ذكره أنّ عبد الملك مرتاض وظّف كل من التراث المعجمي، والتراث اللغوي (ما جاء في كتابات الجرجاني من معنى السمة)، والتفاسير اللغوية (تفسير الزمخشري)، لاصطناع مصطلح السمة، وتفضليه له على مصطلح العلامة، وقد أصاب في ذلك؛ لأنّ لفظ السمة يقترب صوتيا من السيمائية (و إن اختلفت مادتهما، فالأول من وسم، والثاني من سوم).

### 3- مصطلح الحيّز: Space ,Espace

يأتي المعنى المعجمي للحيّز من "حاز الإبل، يحُوزُها، ويَحِيزها، حوزا وحيزا، وحوَّزها: ساقها سوقا رويدا... وحَوز الدار وحَيزها، ما انضّم إليها من المرافق والمنافع، وكل ناحية على حدة حيّزٌ"[5].

---

(1)- الزمخشري، الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت، دت، ج2، ص404.

(2)- ينظر : عبد الملك مرتاض، قراءة النص بين محدودية الاستعمال ولا نهائية التأويل، ص330.

(3)- ينظر : عبد الملك مرتاض، قراءة النص بين محدودية الاستعمال ولا نهائية التأويل، ص330.

(4)- ابن منظور، لسان العرب، مادة حوز.

(5)- ينظر : عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، ص297.

خالف عبد الملك مرتاض جماعة من النقاد العرب المعاصرين، ممّن استخدموا مصطلح الفضاء في كتاباتهم، واصطنع لنفسه مصطلحا، شاع في كتاباته هو الحيّز[1].

ثمّ يتساءل مرتاض قائلا : لماذا الحيّز وليس الفضاء، ويسترسل مجيبا عن تساؤله "إنّنا نعتقد أنّ الفضاء أوسع من أن يشمل مساحة الحيّز شمولا تفضيليا، وأشسع من أن يحتوي هذه المساحة الضيّقة أو المحدودة الأطراف، التي نودّ إطلاقها على شيء ظارف له صلة بالمساحة الجغرافية دون أن يكونها"[2]، ففي هذه الإجابة، يدعو مرتاض إلى التفاضل الحاصل بين المصطلحين، فالفضاء هو ذاك الفراغ الهائل الذي لا يمكن إدراكه بالبصر، بخلاف الحيّز الذي يتّصف بالآنية والمكانية، فيكون معها محدودا بالمساحة والمسافة .

أورد عبد الملك مرتاض مفهوما فلسفيا – كما جاء عند أرسطو في كتابه الطبيعة – للحيّز قال فيه "الحيّز شاغل، والإنسان به مشغول، فلا يمكن لأي كائن حيّ،كما لا يمكن لأيّ آلة أيضا أن تكون، أو تتحرك، إلاّ في إطار الحيّز الذي استهوى تفكير الفلاسفة منذ القدم، فحاولوا فلسفته، وتحديده، ومفهمته"[3]، فعدّوه وسطا مثاليّا، ليصبح مدلول لفظ الفضاء أوسع من مدلول لفظ الحيّز.

يرى عبد الملك مرتاض أنّ المكان لا يمكن أن يرادف الحيّز، وفي هذا إشارة منه إلى الكاتب جميل صليبا؛ لأنّه لا يميّز في المعنى بين المكان والحيّز[4]، وقد برّر ذلك بأنّ المكان لا يرادف اللفظ الفرنسي Espace، ولا وجود لمقابل له في اللغات

---

(1)- عبد الملك مرتاض، قراءة النص بين محدودية الاستعمال ولا نهائية التأويل، ص312. وينظر : عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، ص297.

(2)- عبد الملك مرتاض، قراءة النص بين محدودية الاستعمال ولا نهائية التأويل، ص314. وينظر : عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، ص298.

(3)- ينظر : جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1978، ج2، ص412/413.

(4)- ينظر : عبد الملك مرتاض، قراءة النص بين محدودية الاستعمال ولا نهائية التأويل، ص315.

الأوروبية، فلا يطلق Le lieu على Léspaca ولا Léspace على المكان، وأنّ اللفظ الفرنسي Le lieu ليس المعجّل بالمفهوم الضيّق، ولكنّه المكان؛ لذلك فضّل مرتاض أن يترجم مصطلح Espace بالحيّز، وأن يترجم مصطلح Le lieu بالمكان[1].

وإنّما أراد ذلك؛ لأنّ الحيّز في تصوره "لا يرتبط وجوده، ولا مُثُوله، على سبيل الضرورة بالجسم الذي يشغله؛ لأنّنا نعدّ هذا الجسم الذي يشغله، في حدّ ذاته حيّزا قائما بنفسه فيه فالشجرة لدينا مثلا، من حيث هي هيئة نباتية، تتكون من جذع، وأغصان وفروع، وأوراق، حيّز يشغل مكانا لا أنّ المكان لا يكون إلاّ بهذا الحيّز، فالحيّز متفرع في تصورنا عن المكان، وإن لم يكن من جنس مادته الصوتية، فالمكان أصل ثابت، قائم، باق؛ لأنّه مستقر الكينونة ذاتها، ولأنّه موئل للكائنات من حيث هي لا تستطيع أن تفلت من قبضته، سواء علينا أكانت صغيرة أم كبيرة، وعالقة أم غير عالقة "[2].

هذا تصور الحيّز عند عبد الملك مرتاض، فالحيّز يشغل مكانا، والمكان يشغل فضاء والفضاء يشغل كونا، فكلها متلازمات، ينشئ الأول منها ما يليه، فالمكان ثابت قار، والحيّز عارض ناشئ.

ويختم مرتاض حديثه عن الحيّز، بمخالفته للفلاسفة المسلمين، والنقّاد العرب المعاصرين من جهة التصور لمفهوم هذا المصطلح، يقول فإنّنا "نختلف مع الفلاسفة المسلمين الذين يربطون وجود المكان بالجسم الذي يشغله، فالمكان لديهم كأنه غائب، بل منعدم، خارج شغل الجسم إياه ...كما نختلف مع النقاد العرب المعاصرين الذين لا نراهم يتعاملون، غالبا إلاّ مع المكان الجغرافي (في التحليلات المنجزة حول السرديات مثلا).

(1)- عبد الملك مرتاض، قراءة النص بين محدودية الاستعمال ولا نهائية التأويل، ص317.

(2)- عبد الملك مرتاض، قراءة النص بين محدودية الاستعمال ولا نهائية التأويل، ص318.

أمّا حين يمرقون به عن هذا الإطار، وتناولون به الشعر تحت مصطلح الفضاء، فإنّنا لم نلفهم، وذلك في حدود ما لنا من إلمام بكتاباتهم التي يكتبون، تناولوا مفهوم الفضاء، من حيث هو مصطلح كما أرادوه أن يكون، فعرّفوه، وبلوروا دلالته انطلاقا من الدلالة المعجمية إلى الدلالة المصطلحاتية القائمة على خلفية معرفيّة "[43]؛ أي أنّ الفلاسفة المسلمين – في نظر مرتاض – يعدّون المكان والجسم متلازمان، فلا وجود لمكان في غياب الجسم الذي يشغله.

وأمّا النقّاد العرب المعاصرون فلم يخرجوا عن الدلالة المعجمية للمكان حين أردوا تحديد مفهومه الاصطلاحي فظلّ عندهم قاصرا، لم يتعدّ المفهوم الجغرافي، أمّا مرتاض فالحيّز عنده "هو هيئة تتّخذ أشكالا مختلفة لا حدود لها لتمثّلها في الذهن، فتراها تعرض لنا ناتئة ومقعّرة ومسقيمة ومعوجّة، وعريضة وطويلة، كما تمثّل لنا في صورة خطوط، وأبعاد، وأحجام، وأوزان دون أن ترتبط بالضرورة، بما، أو بمَن، فيها"[(1)].

يتّضح ممّا سبق أنّ عبد الملك مرتاض، قد وظّف التراث الفلسفي الإسلامي، والزاد العلمي المعرفي له (إحاطته بترجمات المصطلحات التي تتداخل مع الحيّز)، ومعرفته باللغات الأجنبية ؛ كآلية لاصطناع مصطلح الحيّز، الذي قدّم له تصورا خالف به ما كان شائعا عند الفلاسفة، وما هو متداول بين النقّاد العرب المعاصرين.

(1)- عبد الملك مرتاض، قراءة النص بين محدودية الاستعمال ولا نهائية التأويل، ص318.

**خاتمة :**

بعد عرضنا لهذا التأصيل المعرفي لبعض المصطلحات عند عبد الملك مرتاض، تبيّنا لنا ما يأتي :

– إنّ السبب الرئيس وراء اصطناع عبد الملك مرتاض، لجملة من المصطلحات التي تفرّد بها، هو غياب الدلالة الدقيقة للمصطلحات المتداولة بين الباحثين في كثير من الأحيان، أضف إلى ذلك الترجمات المضللة لبعض المصطلحات.

– إنّ آليات اصطناع المصطلح عند عبد الملك مرتاض متعدّدة ومتنوّعة، ومنها :

– التراث المعجمي ونقصد به توظيف المعاني اللغوية في صياغة المصطلح.

– التراث اللغوي، ونقصد به انتقاء مصطلحات وظّفها علماء العربيّة المتقدمون في كتاباتهم وهي تحمل الدلالة نفسها التي تحملها المصطلحات الحديثة.

– التفاسير اللغوية للقرآن الكريم، ومقاربة المصطلح القديم والحديث، اللذين يتقاطعان في المفهوم نفسه.

– التراث الفلسفي الإسلامي، والاستعانة به لصياغة مصطلحات تقرب في دلالتها من المصطلحات الحديثة.

– والزاد العلمي المعرفي له (إحاطته بترجمات المصطلحات التي اصطنع لها مقابلات خاصة به) ومعرفته باللغات الأجنبية.